أمام بوابات غزة

في سنة ١٩٥٦، رثى موشيه ديان جندياً إسرائيلياً سقط برصاص الفدائيين، في مستعمرة ناحال عوز التي أقيمت على أطلال قرية فلسطينية مدمرة.

الجندي القتيل كان يدعى روعي روتبرغ، والقرية الفلسطينية كانت تدعى خربة الوحيدي. ما نعلمه عن الجندي القتيل لا يتجاوز إشارة وردت في المصادر الإسرائيلية عن هجرة ابنه بوعاز إلى تايلاند بعد مقتل والده. أمّا أطلال القرية المدمرة فقد وصفها شكري عرّاف بالكلمات التالية: "خربة الوحيدي: تقع إلى الشرق من البريج/غزة، فيها بقايا أبنية عربية من حجر مهدومة تماماً، وفيها ثلاث جميزات وسور" ("المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والتسميات العبرية"، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٤).

لا أدري ماذا حل بالجميزات الثلاث، لكن ما أعرفه هو أن مستعمرة ناحال عوز لا تزال في مكانها، ويقيم فيها نحو ٣٦٠ مستوطناً، وأن القرية الفلسطينية المدمرة لا تزال أطلالاً.

في مقالته: "نظرة دونية إلى الفلسطينيين" (هآرتس ٣ حزيران/يونيو ٢٠١٨)، يشير الشاعر الإسرائيلي يتسحاق ليئور إلى خطاب ديان في ناحال عوز بصفته تعويذة للبؤس: "يحبون في اليسار أن يقتبسوا تأبين ديان على قبر روعي روتبرغ. هذا التأبين هو صلب 'البؤس الصهيوني': نحن نطرد، وأنتم تحاولون الرد، عندها علينا أن ندافع عن أنفسنا من 'المتسللين'، 'الفدائيين'، 'المخربين' وسائر 'الغرباء'. الآن هم 'حمساويون' على أسوار الغيتو، ولهذا فإن مصير المتظاهرين هو الموت. هذا هو الوعي الجماعي: 'نحن بشر وأنتم جراثيم'."

لماذا احتل خطاب ديان التأبيني هذه المكانة في الوعي الجماعي الإسرائيلي، ولماذا يقوم شاعر إسرائيلي معاصر باستعادة هذا النص، في سياق تحليله للمجزرة التي تدور منذ شهرين على أسوار أكبر غيتو في التاريخ، غيتو غزة؟

هل مقارنة مسيرات العودة في غزة بمجموعة من الفدائيين، "المتسللين أو المخربين" بحسب القاموس الإسرائيلي، منطقية؟ كيف نقارن بين مجموعة مسلحة اقتحمت ناحال عوز وقتلت مستوطناً صهيونياً، في سياق البدايات غير المنظمة للعمل الفدائي، وبين عشرات آلاف اللاجئين في غزة، الذين صنعوا ملحمة مسيرات العودة، وهي ملحمة تتميز باللاعنف الذي يواجَه برصاص القناصة من جنود الجيش الإسرائيلي الذين حولوا هذه المسيرات إلى حفلة صيد دموية؟

قبل أن نصل إلى تلمّس الجواب عن هذا السؤال تعالوا نرجع إلى ناحال عوز في سنة ١٩٥٦، ونقرأ كيف استعان الجنرال الإسرائيلي ببلاغة الكلمات، محولاً الجلاد إلى ضحية، في محاولة منه للتحايل على الحقيقة.

نشأ كيبوتس ناحال عوز في سنة ١٩٥١، كأول مستعمرة زراعية عسكرية في إسرائيل، في سياق مشروع بناء مجموعة من المستعمرات الزراعية ـ العسكرية أنشأتها وحدات عسكرية

عُرفت باسم ناحال، وجمعت ما بين الخدمة العسكرية والعمل الزراعي. وحدات ناحال أنشأت أغلبية كيبوتساتها على الحدود الإسرائيلية، بصفتها مستعمرات دفاعية.

عُرف الجنود العاملون في هذه الوحدات باسم "بذور ناحال"، وخدمت هذه الوحدات في قطاعات متنوعة من الجيش الإسرائيلي.

ورد اسم ناحال عوز في سياق عملية تسلل عبر الأنفاق قامت بها كتائب عز الدين القسام صبيحة الاثنين الموافق فيه ٢٨ تموز/يوليو ٢٠١٤ في إطار عدوان "الجرف الصامد" على قطاع غزة، وقد أشارت هذه العملية إلى دخول سلاح جديد في المواجهة هو سلاح الأنفاق، حين نجح المقاومون الفلسطينيون في التسلل تحت الأرض من حي الشجاعية، والاشتباك مع جنود الجيش الإسرائيلي.

ناحال عوز هي عنوان المرثية التي رسمت فيها إسرائيل في سنة ١٩٥٦، على لسان رئيس أركان جيشها، دلالات المواجهة مع الفلسطينيين.

وقف ديان خطيباً ليقول:

"بالأمس قُتل روعي، سكينة الصباح الربيعي أبهرت عينيه، فلم يرَ المتربصين بروحه على حدود التلم في الحقل. يجب ألاّ نتهم القتلة اليوم، كيف لنا أن نشكو كراهيتهم الشديدة لنا؟ فمنذ ثمانية أعوام وهم يقيمون داخل مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، ونحن أمام أعينهم نحوّل الأراضي والبلدات التي أقاموا فيها، وأقام فيها أجدادهم من قبلهم، إلى مزارع لنا.

"علينا أن نطالب بدم روعي من أنفسنا لا من العرب في غزة. كيف أغمضنا عيوننا ولم نحدق في مصيرنا، لنرى وعد زماننا بكل قسوته؟ هل ننسى أن مجموعة الشباب هنا في كيبوتس 'ناحال عوز' تحمل على أكتافها بوابات غزة الثقيلة، بوابات تزدحم خلفها مئات آلاف العيون والأيدي المبتهلة لنضعف، كي يتمكنوا من الظفر بنا وتمزيقنا؟ هل نسينا؟

"سنقيم اليوم حسابنا مع أنفسنا، نحن الجيل الذي يستوطن الأرض، فمن دون خوذة الفولاذ والمدفع لن يكون في إمكاننا أن نبني بيتاً أو نزرع شجرة. علينا ألاّ نرتدع أمام الاشمئزاز الذي يلتهب في حيوات مئات ألوف العرب الذين يعيشون حولنا، هذا قدر جيلنا، وهذا خيارنا، أن نكون مستعدين ومسلحين.

"روعي الفتى الذي غادر تل أبيب ليشيد له منزلاً على أبواب غزة، ويكون سوراً لنا، أعمى الضوء في فؤاده عينيه، فلم يرَ بريق السكين؛ الشوق إلى السلام أصمّ أذنيه فلم يسمع صوت القتل المترصّد له، ولم تتسع كتفاه لأبواب غزة الثقيلة، فصرعته."

على الرغم من الهوة البلاغية والفنية والإنسانية التي تفصل لغة محمود درويش عن رطانة ديان العسكرية التي تعلن انتماءها إلى منطق القوة وحده، فإن هذا النص يصلح أن يكون مسودة خطاب الرجل الأبيض في مواجهة "خطبة الهندي الأحمر"، التي تقدس الأرض والطبيعة، وتنظر إلى المنتصر باحتقار يستحقه المستعمر.

ماذا قال موشيه ديان عن لاجئي غزة؟

توقف الجنرال عند حقيقتين: الأولى هي خسارة الفلسطينيين لأرضهم، والثانية هي حقدهم على المحتلين الذين قاموا بنهبها.

وصف وضعي لا يتضمن أي حكم أخلاقي له علاقة بالحق. الحقيقة تنفصل عن الحق، فحقيقة خسارة الفلسطينيين تتحول إلى حدث عارض يقوم الجنرال الإسرائيلي بقراءته في سياق تحديده للقدر والخيار الإسرائيليين، وهو هنا ينتقل من وصف كارثة الفلسطينيين التي تبدو كأمر حتمي لا بد منه من أجل أن يتحقق "القدر" الإسرائيلي، إلى الكلام على التحديات التي جسّدها موت الفتى الإسرائيلي روعي برصاص المتسللين.

لاحظوا الفرق بين أحقاد العرب وبين وداعة الإسرائيلي الذي أعمى الضوء عينيه، ونسي أن عليه أن يحمل بوابات غزة الثقيلة، أي أن يحمل عبء الجريمة الإسرائيلية التي كان لا بد من ارتكابها!

نص ديان القصير يشكل رداً على النقاش الصاخب الذي دار حول "المؤرخين الإسرائيليين الجدد"، فالرجل الذي كان أحد صانعي النكبة، والذي يفتخر بأنه "انتهك" اللد في تموز/يوليو ١٩٤٨، لا يحتاج إلى وثائق أرشيف الجيش الإسرائيلي كي يعلن الحقيقة العارية.

إنه يقول للفلسطينيين بوضوح إن جيشه طردهم، ولن يسمح لهم بالعودة، وإن القدر الإسرائيلي هو الخوذة الفولاذية والسيف، معلناً أن هذا القدر خيار إسرائيلي، وأن لعبة القتل ستستمر إلى النهاية.

لم يسأل ديان نفسه أين تقع النهاية، فهو لم يرَ سوى مسلسل دموي، كأن ناحال عوز في سنة ١٩٥٦، كانت ترسم ملامح غزة في الحروب الإسرائيلية المستمرة من أجل إذلال الغيتو الفلسطيني وتركيعه.

كيف نقرأ اليوم دلالات الملحمة التي يصنعها اللاجئون في غزة؟

هل تستطيع مسيرات العودة أن تفتح ثغرة في بوابات غزة الثقيلة، وتخلخل الوعي الإسرائيلي؟

صارت الاستكانة إلى الاحتلال والتسليم به والدفاع عن المستعمرات والمستوطنين ومشاريع الضم جزءاً من القاموس السياسي الإسرائيلي، فهل تستطيع مسيرات سلمية تصطدم بجدار من الرصاص أن تخلخله؟

من السذاجة أن نفترض أن مسيرات العودة ستفتح أبواب العودة الموصدة منذ سبعين عاماً، ولا أعتقد أن هذا هو هدفها الحقيقي. كما لا أعتقد أن فضح وحشية الاحتلال أمام الرأي العام العالمي هو أولوية بالنسبة إليها، على الرغم من أن هذه المسيرات حققت هذا الهدف الثاني، في سياق تنامي حملة المقاطعة. كما لا أظن أن السذاجة ستدفعنا إلى الاعتقاد أن الضغط الدولي سيغيّر من مسار الانسداد السياسي الشامل الذي أنهى ما كان يسمى عملية السلام. فإسرائيل اليوم تتكىء على حليفين كبيرين:

الحليف الأميركي الذي يتماهى اليوم من خلال إدارة ترامب مع المشروع الاستيطاني الإسرائيلي بشكل كامل، ويسعى لفرض صفقة التصفية الشاملة للقضية الفلسطينية، تحت عنوان "صفقة القرن".

والحليف العربي الذي كشف أوراقه، معلناً ما كان مستتراً وملتبساً، وهو أن النظام العربي المهيمن صار اليوم أسير الهوس بالصراع مع إيران، متخلياً عن ورقة التوت الأخيرة التي

كانت تستر عريه وعاره، والمتمثلة في ادعاء دعم القضية الفلسطينية.

مسيرات العودة تشير إلى تحوّل كبير في الواقع السياسي الفلسطيني لا تزال ملامحه غامضة، وهي تعلن سقوطين مدويين:

سقوط منطق أوسلو الذي استند إلى افتراض إمكان إنشاء دولة فلسطينية مستقلة عبر المفاوضات. فهذا المنطق بدأ يتداعى عندما تحوّل سفاح مجزرة الحرم الإبراهيمي في شباط/فبراير ١٩٩٤، باروخ غولدشتاين، إلى بطل قومي إسرائيلي، وقد وصل هذا التداعي إلى ذروته مع اغتيال رابين وعرفات. واليوم يدق الثنائي ترامب ـ نتنياهو المسمار الأخير في نعش التسوية، عبر إعلانهما الواضح أن السلطة الفلسطينية لا سلطة لها، وأن أقصى ما يمكن تقديمه هو قوننة الأبارتهايد، وتحويل الدولة الفلسطينية إلى أحد أسمائه المستعارة.

وسقوط منطق الانقسام الفتحاوي ـ الحمساوي الذي عبرّ عن انشطار الخيار الفلسطيني إلى نصفين لا قوام لهما، إلاّ داخل منطق سلب الفلسطينيين قرارهم الوطني المستقل.

سقط المنطقان السائدان في الساحة الفلسطينية، ولم تعد البرامج السياسية القديمة تحمل أي مضمون، فالتحرير و/أو بناء الدولة المستقلة، في موازين القوى السائدة، صارا شعارَين بلا مضمون ولا أفق.

السؤال الفلسطيني اليوم هو سؤال عن أفق المشروع الوطني الذي يتداعى بين أيدي قوى لم تعد فاعلة، وصارت أسيرة لغتها القديمة.

مسيرات العودة تأتي في سياق البحث عن أفق نضالي ـ سياسي جديد، وهو بحث لم يبدأ في الأمس، اذ نجد جذوره في تحركات جماهيرية ونضالية بدأت مع باسل الأعرج، واستمرت في انتفاضة السكاكين، وبلغت إحدى ذراها في المقاومة الجماهيرية الكبرى للبوابات الإلكترونية.

تحمل هذه المسيرات دلالتين كبريين:

الأولى هي تأكيد حق العودة، وهو الشعار الفلسطيني الجامع الذي يوحد الشعب الفلسطيني في الوطن والشتات. وهنا يجب الإشارة إلى أن نسبة كبيرة من فلسطينيي غزة والضفة والقدس هم لاجئون، وأن حق العودة يمسّهم بشكل مباشر، ويوحّدهم مع فلسطينيي المخيمات والشتات الذين يتعرضون اليوم لمآسي لجوء جديدة. لا يمكن فصل حق العودة عن المشروع الوطني الفلسطيني، وهو ما أشار إليه آلاف المتظاهرين في غزة، الذين كسروا الحدود بدمائهم.

الثانية هي أن الانهيار الشامل في المشرق العربي، يعني أن على الفلسطينيين أن يعوا بأنهم اليوم وحدهم في مواجهة أعتى قوة وحشية في المنطقة. فإسرائيل العنصرية، بجميع تلاوين طيفها الصهيوني، تعتقد أن هذا الانهيار العربي هو فرصتها لفرض الحل النهائي للمسألة الفلسطينية، أي إبادة الفلسطينيين سياسياً، وإخضاعم للتمييز العنصري وإذلالهم وإفقارهم، كي يرتضوا بالعبودية. الحل النهائي يعني الضم الفعلي للضفة، وإبقاء غزة في الحصار والجوع.

قدمت لنا غزة احتمال أفق اسمه المقاومة الشعبية الشاملة، وهو أفق يحتاج إلى التحول

إلى برنامج سياسي نضالي شامل، يتم تبنّيه في الضفة الغربية والقدس، تمهيداً لتحويله إلى إطار جامع عبر انضمام الشتات إليه.

وهذا يعني أن النقاش بشأن الوحدة الوطنية وإنهاء الانقسام سقط. فمفاوضات الوحدة كانت حتى الآن مجرد صراع على السلطة في مؤسسات سلطة أوسلو، وهذا الصراع لم يعد له ما يبرره، فالسلطة فقدت سلطتها. المطلوب اليوم هو بناء جبهوي ينطلق من أرض النضال الجماهيري، ويؤسس لمعركة طويلة النفس اسمها معركة البقاء في الأرض والدفاع عنها، وتحمل شعارَين سياسيين:

الانسحاب الإسرائيلي بلا قيد ولا شرط من جميع الأراضي المحتلة، وتفكيك جميع المستعمرات.

والمساواة في الحقوق.

الشعاران ليسا متناقضين إلاّ في الظاهر، لكنهما في الواقع يكملان بعضهما البعض. فالمساواة هي شعار فلسطينيي الداخل ويجب أن يبقى قي صدارة المشهد السياسي الفلسطيني، أمّا الانسحاب فهو حق تأسيسي حتى لو جرى تبنّي شعار الدولة الثنائية القومية، فهذا الشعار لا معنى له إلاّ إذا تم الاعتراف بالحق الفلسطيني وبالمساواة في حقوق جميع المقيمين على أرض فلسطين.

النضال الجماهيري لا يعني التخلي عن السلاح، بل يعني أن الأولوية اليوم، هي للعمل الشعبي الذي يستطيع خلق دينامية نضالية جديدة، وسط هذه الصحراء السياسية العربية التي تحاصر فلسطين.

عندما رثى ديان القتيل الإسرائيلي في ناحال عوز، فإنه كان يرثي "الحلم الصهيوني" الذي لم يكن سوى كابوس. فهذا الجنرال كشف في وقت مبكر المأزق الأخلاقي الإسرائيلي أمام بوابات غزة، وفي كل فلسطين.

أمام هذه البوابات صنع الإسرائيليون واحدة من أكثر مجازرهم وحشية؛ هنا يعلن جيش المستوطنين أن مهمته الأساسية هي قتل الفلسطينيين وإطفاء الضوء في عيونهم.

لكن اللاجئين لم يتوقفوا منذ سبعين عاماً عن قرع بوابات غزة المقفلة بالكراهية والموت، وسيواصلون هذا القرع إلى أن تنكسر الأقفال وتفتح فلسطين يديها لأبنائها العائدين إليها وقد جُبلوا بماء الأرض وطينها، وصنعوا من موتهم باب الحياة. ■

الياس خوري